تصوّر العلاقة بين الصوت (الحرف) و معناه الدلالي
في اللغات القديمة

أ.رابحي محمد
كلية الآداب و اللغات.
جامعة ابن خلدون. تيارت.

مقدمة:

بغض النظر حول الخلاف التاريخي غير المحسوم حول اللغة أهي وحي و توقيف أم مواضعة و اصطلاح ؟ ، فإن السؤال اللساني و الدلالي الكبير الذي تولّد عن هذه الإشكالية- وهو هل هناك مناسبة طبيعية واصطلاحية بين الألفاظ و معانيها أم لا؟- قد وفر لنا إطارا مرجعيا مُهمّا لطرح إشكالية أخرى منبثقة عنه، وتدخل في صميم هذا البحث، و هي: هل ثمة من إشكالية قائمة فعلا بين الصوت اللغوي ومعناه أم لا؟

وإذا كانت هذه العلاقة قائمة فعلا، فهل هي ذاتية حتمية ثابتة يحكمها التناسب الطبيع ي سواء أكان توقيفيا أم اصطلاحيا وضعيا؟، أم على العكس من ذلك، هي اعتباطية باعتبار الحروف رموزا أبجدية تشارك في إنشاء وتركيب المستوى الدال كأصول للكلمات ،لكنها تمثل عنصرا غير دالّ عند تحليل بنية الكلام (1)عموما، و ردّه إلى مدرجه الفسيولوجي في جهاز النطق كما ترى اللسانيات الحديثة. سنحاول في هذه الدراسة أن نبحث في تاريخ الكتابة عن كيفية تصور الإنسان البدائي للعلاقة بين الحرف، أو بالأحرى الصوت، ومعناه في فترة ما قبل التاريخ إلى غاية نشأة الكتابة الأبجدية؟

- حركية الانتقال من الصوت إلى الحرف:

قد يظن البعض أن بدائية الإنسان الأول "تعني أنه كان لا يجيد التفاهم مع أقرانه، بل بالعكس نجد أن هذا الإنسان يمكن من أن يطور نظاما ممتازا للتخاطب والتواصل بالآخرين من بني جنسه"[2] بحيث كلما اتسع إدراكه لما حوله في الوجود كثرت حاجاته، وبازدياد حاجاته زاد تواصله الصوتي مع غيره للتفاهم حول تلك الحاجات وتلبيتها، وهكذ ا اتسع نطاق استخدامه للغة[3]،ولكن لنتساءل "كيف استطاع الإنسان الأول أن يوجد هذا النظام الممتاز للتخاطب والتواصل مع الآخرين من بني جنسه ؟ فهذا ما لا نعرفه بشكل محدد؟"[4]

ولكن أقرب التفسيرات إلى المنطق و العقل هي التي ترى أنه " لا شك أن البعض منهم منذ أقدم العصور بدءوا يتعجبون من هذه الوسيلة التي اختص بها الآدميون دون الحيوانات الأخرى، فتدبروها و تأملوها حتى جاء أحدهم — ولا ندري من هو- ففكر مليا في حيلة تحفظ الكلام الزائل الذي تفنى حروفه أحدها تلو الآخر بمجرد ما تحدث لكونها أصواتا (أي تلك الوسيلة المراد كشفها) تنتشر في الهواء بالتموج فتزول بزواله بحيث تمنعه هذه الوسيلة من التلاشي والاضمحلال .

"ففي عويل الريح رنين، و في خرير المياه نغم، في السكون رتابة و في حركة الأفلاك ودبيب الكائنات نظام .كل ما في الطبيعة يخضع لنسق مطّرد عجيب.

الأنفاس التي تذبذبت في صدر، الدقات التي خفق بها قلب، السابح في الفضاء، كالغائص في الماء كالذي بينهما ، كل له شدو و تغريد والإنسان ككل الكائنات ، غنّى قبل أن يتكلم.

تنفرج شفتاه عن **إيه** أو **آه** فتتموج في متاهات الكهوف و الإنفاق، و ترددها الآكام وترجعها الوهاد والأودية في رنين يشجي، و أغان تطرب و يقف الإنسان الأول أمام هذه الظاهرة في حيرة!!؟؟

و يكرر التجربة فيتكرر الصدى نسيقا، و يتابع الإنسان ...فتستأنف الكائنات الأخرى تقليدها و محاكاتها، فإذا الوجود كله يشترك في نشيد أبديّ، وإذا الإنسان رئيس جوقة له من الابتكار أبكار"(5).

وكل ذلك كان للحاجة الشديدة لتقييد المعاملات بشكل محسوس (تجاوزا للكلام الملفوظ) لكثرة النسيان للمسموع " فما وجد أحسن من تمثيله تمثيلا ملموسا بأن يصور نقشا على الحجر –أو أي مادة صلبة – معاني الكلم بصورة ترمز من قريب أو من بعيد إلى تلك المعاني . ولما كان التصوير معقدا و شاقا، ويأخ ذ وقتا طويلا في كشف رموزه تنبهوا لطبيعة الصوت البشري (مخرجا وصفات)في مدرج النطق الفسيولوجي – ونتساءل مرة أخرى : ولكن كيف تم ذلك ؟

يرى الأستاذ عباس محمود العقاد في كتابه "اللغة الشاعرة" أنه كان أيْ:" الكاتب القديم في عهود الكتابة الأولى قبل اختراع الأبجدية، يريد أن يكتب كلمة "يمشي" مثلا فيرسم على الصخر أو الورق صورة إنسان يمشي على قدميه، ويبدو علي هأنه يتحرك في مشيته. ثم تطورت الكتابة فانتقلت الصورة إلى مقطع صوتي (صوري)* يؤخذ من الصورة ويستخدم في الدلالة على الأصوات التي تشبهه.

و بعد ذلك انتقلت من المقطع الصوتي المصوّر إلى حرف واحد تجتمع فيه(كرمز دلالي كل معاني الصورة، وتوالت حروف الأبجدية بعده ، وهذه هي الكتابة في مرحلتها الأخيرة فالباء هي الحرف الأول من كلمة "بيت " التي كانت ترسم على شكل بيت للدلالة على المبيت أو المساء، ثم تولد منها مقطع بحروفه الثلاثة (ب–ي–ت)، ثم تولد من المقطع حرف واحد هو الذي من الصورة كلها، وهو الذي نسميه حرف" الباء" ونسمعه فلا يخطر لنا رسم البيت على بال ، لأننا تخطينا بالكتابة عهد الصورة الهيروغليفية ، وعهد المقطع الى عهد الحروف الأبجدية"[6] ويرد عليه الدكتور أنيس فريحة:" أن المعنى قائم في الاختبار لا في الصوت، فعندما نسمع كلمة بيت أليس الاختبار في حنايا العقل هو الذي يترجم الصوت إلى معنى " (7) بمعنى أن حرف الباء لا يوحي بشيء بل العقل هو الذي يقرن الدلالة بالحرف اختيارا وليس للصوت إيحاء مطلقا.

بينما يرى الأستاذ محمد المبارك أن الأمر يتعلق بالتداعي أو التلازم الاصطلاحي بين الأصوات (مسموعة ومكتوبة) و المعاني المقابلة لها بالنسبة إلى كل لغة من اللغات " [8]" ومن أوْجَه ما قيل في أصل الكلام : إن اكتشاف الإنسان للطاقة الكامنة فيه، و التي تؤهله لصنع وسيلة للتفاهم بوساطة صوته الطبيعي، جاء على الأرجح أثناء قيامه بعمل جماعي شاق، فجاءت المقاطع اللغوية الأولى أصواتا ملحنة (ملحقة): لا تنطوي على معنى جزئي، وإنما تهدف إلى غرض كليّ جماعي هو توقيت الجهد العضلي للجماعة المتعاونة، وتنسيقه على إيقاع صوتي معين، ثم جاء بعد ذلك الدور التحليلي وهو تسمية الأشياء بأسمائها، وكان على الأرجح على صورة جمل كاملة لا ألفاظ، لأن الفكر الإنساني لم يبدأ بإدراك المفردات مجردة بل موضوعة في ملابسات لاحظها فعبر عنها، أي أن الجملة المركبة هي الجملة التي كان ينفق فيها الفكر و بها يحوز ممتلكات جديدة في الكون الواسع المحيط به، وكانت هذه الجمل تنطبق على تجسيم مادي خارجي لمضمونها، هو تلك الملابسات التي كان يلاحظها الإنسان . ثم تلا ذلك تقسيم أدق تطلق فيه أسماء معينة على الأشياء بحيث تحدد بها هذه الأشياء و تتعين ، ويمكن استخراجها و التعرف عليها 9)

وهو الأمر نفسه الذي أكده الباحث السابق الذكر ولكن بصيغة معكوسة "من أن الإنسا ن لم يكن بإمكانه أن يرتفع من الواقع الجزئي كشجرة معينة يراها، إلى المفهوم العام أو المعقول الكلي لولا اللغة " (10) ومن الكتابة الحجرية التي تحاكي السلوكيات رسما، إلى المشاعر الإنسانية التي تحاول تقمص أشياء العالم الخارجي مع التعبير عنها صوتا. و قد مرت قرون طويلة كان فيها التشخيص بالحركات ثم بالأصوات الملائمة للخصائص الحسية لتلك الأشياء (المحاكية) أو المعبرة عن معاناة الكيان البشري أي (التنفيس)، ليتم تعويضها:

أ- بنبرات أصوات الحروف الموحي كما في أسماء الأفعال (كآه و أح وإيه وهيهات.....)
ب- بحركات أعضاء جهاز النطق تمثيلا أثناء التلفظ بتلك الحروف التي صارت تعوض بالتصوير اللساني صوتا ما كانت النقوش تصوره رسما محفورا في الصخر ليتم شيئا فشيئا اكتشاف مدرج الكلام البشري عبر التقسيم اللساني للأصوات إلى مخارج وصفات (11)

وبعد أن كان التفاهم يتم بالإشارات، ثم المقاطع الصوتية القليلة، أصبح يتم بمقاطع أكثر لحاجات أكثر. وهكذا إلى أن أمكن حصرها فكان منها اللغة (12)، وكان ذلك بعد مرور عدة قرون استطاعوا خلالها تحليل الكلام، والتمييز بين المستويات الدالة وغير الدالة فيه (13)، أي الفونيمات و المورفيمات بالتعبير اللساني الحديث الجانح لترجيح الاعتباطية في العلاقات اللغوية الدلالية.

- تصور قدماء المصريين للعلاقة بين(الصوت) الحرف والمعنى:

أ- إن الأشياء في وجودها الطبيعي، يدركها الإنسان لأول وهلة ككل (أي بتكوين فكرة عامة عنها) عبر فهم البديهة، ثم يأتي العقل عبر التقسيم والترتيب والتوزيع فيعقلها أجزاء وتفاصيل، وبصره حين يقع على الأشياء المحسوسة أول الأمر يخلط بينها، ثم يتمكّن رويدا رويدا من إدراك المتشابه وغير المتشابه، فيميّز الأسود من الأبيض والصغير من الكبير، والباب من النافذة، وتصبح الصورة المميزة كتابة حين تعتمد كلم ة واحدة بعينها، وتحدد لفظا بعينه أي ما يعرف بتسمية الأشياء بمسمياتها ،وهذه الكلمة "الصورة هي التي كانت الخطوة الحقيقية باتجاه الكتابة السومرية القديمة والهيروغليفية المصرية كما سنستعرض الآن :

- تميز الفراعنة بالكتابة الهيروغليفية التصويرية: "والخط الهيروغليفي لا يمثل الحروف ولا يعكس الأصوات المنطوقة، بل يستخدم الصور للتعبير عن الأفكار بالتمثيل غير المباشر " ولم ينتبه المصريون إلى أهمية التمثيل الصوتي المباشر، و لا البابليون و الآشوريو ن قبل أن يتفطن لذلك الفينيقيون(14)، ثم أخذ التطور، فصارت بعض أوضاع الكتابة الهيروغليفية تشير مع الأيام إلى بعض الأصوات الملفوظة بعد أن كانت لا تشير إلا إلى المعاني المصورة.

وكان لالتفاتهم إلى إشكالية التباس الاسم بالمسمى، أي الدال بالمدلول ،أو اللفظ بالمعنى أثرٌ كبير في ربطه م المعاني التي تدل عليها تلك الأوضاع التصويرية بالهيئات في الخط المعبر عن بعض الأصوات.

ويمكن لنا أن نضبط العلاقة التصورية العقلية بين الحرف ومعناه في تصورهم لها كما يلي:

- في المرحلة الأولى كانت العلاقة دلالة وضعية بين الخط المصور للهيئات ككل و المعاني المحمولة كمدلول ذهني لها.

- في المرحلة الثانية: كانت العلاقة دلالة ثنائية (وضعية- لفظية"صوتية")بين بعض هيئات الخط المصور والصوت الدال عليها، أي أن الصوت يعبر على معنى لكنه ليس ذهنيا، بل مصور مجسم. — في مرحلة الاكتمال الأخيرة: كانت علاقة لغوية دلالية صرفية لفظية بحتة، حيث صار حرف الخط ممثلا للصوت الملفوظ الدال على معنى وهو الخط الهيروغليفي.

ب- أما بالنسبة للصينيين فلا زالت كل علامة كتابية في كتابتهم تدل إلى الآن على كلمة بحالها كما كان الشرق القديم يعرف ذلك ولم يطوروا نظاما يجسد معنى الحرف وعلاقته بالصوت المفرد حتى أن حروف أبجديتهم منفصلة ولا تتحد في بنيات كلامية مندمجة، حيث تتداخل الخطوط مع الأشكال الهندسية بشكل معقد تنتج عنه مورفيمات أو مقاطع شبيهة بأسماء الأصوات في اللغة العربية كإيه و آخ الخ ، ولم يتطور الأمر إلى فصل الفونيمات في المستوى غير الدال كما تسميه اللسانيات المعاصرة أو حروف المباني المعجمية الصحيحة كما تسمّيها العرب.

- تصور العلاقة بين الصوت (الحرف) ومعناه في حضارات وادي الرافدين:

كانت تسكن ضفاف هذا الوادي شعوب سامية أكادية تمظهرت في موجات شعبية متنوعة بدءا من الكلدانيين إلى الآشوريين، وقد انتهت كتابتها المسمارية * إلى كتابة صوتية منذ 3000 سنة قبل الميلاد مرورا بجميع التطورات التي سبق سردها

حول الخط الهيروغليفي في الحضارة المصرية، حيث كان حد تعريفها الابتداء من الرسوم المكتملة الدالة على المعنى ،" بحيث لم تعتمد هذه الكتابة على الحروف فحسب ،بل على الحركات أيضا "[15] حيث صنفوا العلامات البسيطة التي تنوب على المفردات الأحادية المشيرة إلى المعاني المفردة، والتي كانت تعبر عنها بعض الأوضاع المسمارية" [16] وهو ما افتقده الصينيون، بحيث كل علامة مسمارية لها معنى محدد، من خلال تقسيم الكلمة إلى مقاطع صوتية. و يعبر عن كل مقطع صوتي برمز خاص يمثله حرف له حركات (علامة بسيطة) دالة على معنى. و بصورة عامة، لم تكن الطريق التي أوصلت السومريين وبقية شعوب الرافدين إلى هذه النتائج الإيجابية – أي من الرسوم المحسوسة إلى الشكل المجرد الذي يدل عليه المسمار ذو الحد والرأس كحرف وعلامة إعرابية – طريقا علمية منهجية أو لسانية لغوية خالصة، بل تضافرت عوامل دينية و ميثولوجية واجتماعية عمرانية لتدفع باتجاه تهيئة الجو العقلي للعبقرية الفينيقية فيما بعد لحسم أمر الأبجدية على مستوى العناصر غير الدالة في اللغة، حيث أصبح كل حرف يمثل صوتا و يرمز له برمز أحادي خاص به. و هذه العوامل جعلت لغة السومريين الآكاديين تنتقل من مرحلة اللغة الحية من(4000-2000ق.م) إلى مرحلة اللغة المقدسة التي تلعب الممارسات السحرية فيها دورا أساسيا مما شجع على البحث عن الوثائق القديمة المتعلقة بها ، ويضاف لذلك ضبط دلالات ومعاني حروفها وكلماتها المعجمية لما صارت لغة تشريع على يد الملك حمو رابي في قانونه الشهير .

– تصور العلاقة بين الحرف (الصوت) ومعناه عند الهنود:

أ– لقد رفض قطاع واسع من علماء اللغة عند الهنود "فكرة التباين بين اللفظ والمعنى قائلا : إن كل شيء يتصور مقترنا بالوحدة الكلامية الخاصة به أو الدالة عليه، ولا يمكن فصل أحدهما عن الآخر وعلى هذا فنحن نعد الكلمة عنصرا من العناصر المكونة للشيء تماما "[17]، و كان التعبير عن المعاني يتم بالمجموعة الصوتية التي تدل عليها مجموعة مسامير، ولكن لم يكن ذلك على إطلاقه كما يقول إسرائيل ولفنسون في اللغات السامية فيما نقل عنه الأستاذ أحمد مومن من مرجعه السابق :" وليس يجري الخط المسماري على نظام الخط الهيروغليفي الذي يعتمد على الصورة ولا على الخط الكنعاني الذي يعتمد على الحروف بل له نظام خاص ليس بصوري خالص ولا بحرفي خالص" [18] . فالكلمة وفق هذا التيار اللغوي تقابل عناصرها الصوتية في مادتها الأصلية، العناصر المكونة للشيء المدلول عليه وهي الدال المطابق تماما. وهذا ما ستفصله بالبراهين نظرية العبقري العربي ابن جني، كما سيأتي عند الحديث عن التصور العربي للعلاقة بين الحرف (الصوت) ومعناه لاحقا. و لتقريب المفاهيم يضربون لذلك مثلا من مادة الخلق البشري وهي الطين قائلين" فكما أن تصور الطين مشترك في كل إدراكات الأشياء التي يعرف أنها معمولة من طين . فمثلا الإناء و الصحن و القدر ونحوها ، فكذلك **تصور الوحدة اللغوية** .

و يقول الدكتور عبد الرحمان حاج صالح مفصلا الحديث عن دلالة الصوت المفرد أو (الحرف) عند الهنود:"فقد انتبهوا إلى الفرق القائم بين الصوت كظاهرة عامة وكظاهرة فسيولوجية خاصة بالكلام، وبين الصوت الحامل لمدلول وهو ما يدركه المتكلم من الصفات السمعية الصوتية التي تكفي لفهم المدلول[19]. " وهذه الكفاية اللغوية أو التكافؤ بين الصوت و مدلوله هو ما ذكر سالفا في مصطلح (الاقتران ضمن الوحدة اللغوية)، أي بين حروف الكلمات ومعانيها في اللفظ الواحد.

وكان للغتهم السنسيكريتية المقدسة أثر عظيم في تفتيق فكرهم لتصور العلاقة بين الحرف ومعناه بعد تحليلهم للأصوات ووصفهم لمخارجها وصفاتها، هذا من جهة. ومن جهة أخرى، فقد كان اعتمادهم على الوصف و الاستقراء تماما كما كان الحال عند العرب ، حيث كانت لغة كتابهم المقدس **الفيدا** قد استوعبت مختلف العلوم التي دونت بها." فالصوت عموما هو ال" دهقاني "، والصوت الكلامي كلفظ هو " سبدا "، وأما الصوت الدال الذي لا يتغير فهو "سبهوتا" ومعناه الأصلي هو التبجس والانتشار (ضد الانطواء). و قد فسر بعض اللغويين الخبراء باللغة السنسيكريتية مناسبة المعنى الاصطلاحي للمعنى الوضعي بأن المدلول يتبجس و"ينتشر في الذهن أي يتبادر إليه بمجرد استماع السابع" للسبهوت"،أي الصوت الدال[20]

– تصور العلاقة بين الصوت (الحرف) ومعناه في اللغة الفارسية:

أ– تنتمي اللغة الفارسية إلى الأسرة الإيرانية المنتمية بدورها إلى اللغات الهندو أوربية " والتي تتميز بعدم تصرفها لجمودها في أصولها ومبناها ، وإنما يكون تعريفها بزيادة أدوات في آخر الكلمة لا معنى لها في نفسها ، بل معناها قائم فيما زيدت عليه "[21] ، وهذه الأدوات الزائدة هي التي سماها العرب بحروف المعاني فيما بعد و تشمل كذلك الخالفق بما فيها من سوابق ولواحق مضافة إلى البنية الأصلية للكلمة. " واللغة الفارسية القديمة ازدهرت بين القرنين السادس و الرابع قبل الميلاد وكتبت بالخط المسماري " [22]، وهي كتابة صوتية اعتمدت على الحروف و الحركات، أي الصوامت والصوائت كلواحق مكملة للمعنى.

و يمثل المقطع الصوتي (المورفيم) الحامل للمعنى بعده خطوط صغيرة ذات حد ورأس (مسامير) وضمن الفارسية القديمة كانت الأفستية "إحدى اللهجات المتطورة عنه ا "[23] أكثر تطورا واهتماما بضبط مخارج الأصوات (الحروف) وصفاتها بحكم أنها صارت لغة الكتاب المقدس المفسرة لنصوص الديانة الزرادشية .

ب– ومع الفتح الإسلامي استعارت الفارسية الحروف العربية في كتابتها، فكان لذلك تأثيره الكبير في زحزحة جمودها، حيث بدأت البنية الأصلية للكلمات تتضح معها نوعا ما المعنى الكلي الذي تحمله حروفها الأساسية.

– تصور العلاقة بين الحرف (الصوت) ومعناه عند الفينيقيين:

يعرف الفينيقيون بأنه"قوم من أبناء فينيقية، سكنوا بلاد الشام وأقاموا حضارة عريقة امتدت من القرن15 قبل الميلاد إلى القرن الأول للميلاد ولغتهم بائدة تنتمي إلى اللغات الكنعانية التي تمثل الفرع الشمالي لمجموعة اللغات السامية العربية " [24] ، و بواسطة اختراعهم التاريخي صارت الكتابة تصويرا رمزيا للهجاء بعد أن كانت تصويرا رمزيا للمعاني، حيث تفطنوا إلى أهمية التمثيل الصوتي المباشر متوسلين بالخط المسماري الذي أدخلوا عليه ثورة جذرية ، حيث عمموا التمثي ل الصوتي بالنسبة إلى جميع الرموز الخطية و امتنعوا عن التمثيل للمعاني على مستوى الحروف الخطية المفردة (الذي يحكي التقطيع الثانوي)، وجعلوه في مستوى مركباتها، أي الوحدات الأبجدية من مستوى الكلم (الذي يحاكي مستوى التقطيع الأول) وبذلك يستطيع الكاتب أن يكتب الآلاف من الكلمات بعدد قليل جدا من الرموز الخطية (المجموعة الأبجدية)، وتجاوزوا عيوب الكتابة المسمارية بجعلهم لكل حرف صوتي صورة واحدة بسيطة "[25] تمثله خطوط صغيرة ذات حد ورأسان.

و يوحي نظام الفينيقيين الأبجدي بأنهم، عبر استقراء مادة اللغة و أصواتها و تحليلها تحليلا علميا :

أ– قد توصلوا إلى فصل مستويي التقطيع الدال و غير الدال . (المورفيم و الفونيم) كما يطلق عليهما في اللسانيات المعاصرة .

ب– وانتهوا بذلك إلى ضبط الوحدات الأدائية المجردة و ترميزها بالحروف، [26] " بالشكل الأوغاريتي المسماري، ثم التقليدي الحالي[27]، أي حروف الهجاء المتعارف عليها بإجماع عام"فلا يمثل أي حرف من حروفها الا صوتا واحدا"[28]، "أي أنهم نظروا الى الحروف على أنها أمورا كلية تستحق لوحدها أن يرمز لها "[29]

ج–" و أنهم اكتفوا بالصوامت دون الصوائت"[30] "أي الأصوات الجزئية [31]" وما يعتري المخارج من صفات.

د– وكان من أسباب اكتفاء الفينيقيين في الدلالة الخطية على الحروف الجوامد دون المصوتة هـ و ثبات مواد الأصول الصحيحة في اللغات السامية و من ثمة ساعدهم هذا:

*– على الاهتمام بإبراز المادة الأصلية في كتابة الكلمة، و التمييز بين المادة و الصيغة في الاشتقاق وثبات حروف المادة الأصلية يؤدي إلى ثبات المعاني الكلية لهذه المادة كما سنرى في اللغة العربية مستقبلا.

– تصور علاقة الصوت (الحرف) بمعناه عند اليونان و الرومان:

لقد تأثر اليونانيون في صياغة حروف أبجديتهم بالفينيقيين، كما ثبت ذلك من خلال النقوش والآثار المحققة، بل أضافوا لها كما كانوا يسمونها les voyelles (الصوائت) أي لم يكتفوا في ذلك بالحروف الصوامت Lettres(consonnes)

على الصوائت كمكمل للمعنى المحمول في الصوامت (الحروف الجوامد) [33]، و " أدى عدم استقرار حروفها على حالة واحدة في تصريف الكلمة واشتقاقها إلى عدم استقرار المعنى" [34] ثم انتقل هذا الاضطراب بعد ذلك إلى خلاف عميق حول أصل الأصوات الدالة على المعاني في لغتهم هل دلالتها طبيعية أم بالتواطؤ والوضع؟ [32]، لكون لغتهم غير سامية باعتبار انتمائها إلى اللغات الهندوأوروبية الصوامت فيرتكز نظامها في بناء أصول كلماتها

*- يقول أرسطو :" إن الأصوات التي تكتب نجدها تدل على شيء مثل أصوات البهائم ويرجع قوله هذا (إلى أصل قديم استنبته وهو يعمل العقل و يستبحث الفكر و يجهد الحس في استجلاء الممكنات الصوتية للمخلوق الحيواني من خلال أسماء الأصوات وخاصة الزجرية منها : التي تشبه في نطقها طريقة نطق الحروف الهجائية لتحديد مخرجها في اللغة العربية و التي صاغها القدماء من علماء القراءات قاعدة يمثل لها بالبيت التالي:

وهمز وصل جئ به مكسور وسكن الحرف تكن خبيرا [35]

"وهي أصوات منطوقة و من تواضع بين الناس ولو ضمن جماعات محلية" [36] . وتمتاز بأنها أحادية الاستعمال ، يثبتها الإنسان عن إدراك مسبق لمغازيها و يتقبلها الحيوان مستجيبا لها عن غريزة مميزا بين مكوناتها المتقاربة الى حد يجعلها مستعصية على الكائن المدرك فضلا عن عديم الإدراك " [37] " وتمتاز اللغة العربية في مجموع أصوات حروفها بسعة مدرجها الصوتي سعة تقابل أصوات الطبيعة في تنوعها وسعتها ، وتمتاز من جهة أخرى بتوزعها في هذا المدرج توزعا عادلا يؤدي إلى التوازن و الانسجام بين الأصوات، إضافة إلى هذا أن العرب يراعون في اجتماع الحروف في الكلمة الواحدة و توزعها و ترتيبها فيها حدوث الانسجام الصوتي والتآلف الموسيقي" [38] . وأسماء الأصوات في تعريف مبسط ومختصر : هي جملة من الملفوظات المبهمة ، تصدر عن الجهاز الصوتي البشري يوجهها للحيوانات في شكل أوامر و زواجر فتستجيب لها غريزيا و تميز الصوت الواحد من شبيهه أو المتلبس به من حيث المخرج و الصفة " [39]، وهذا التمييز الغريزي من أقوى الأدلة من خلال قياس الأولى على أن الإنسان الأول من خلال اللغة الفطرية كان يستخدم الصوت المقطعي المفرد كحرف لمعنى حيث كان يبثها عن إدراك مسبق لمغازيها و يدرك معناها الحيوان المدرب بالاستجابة الغريزية مع التمييز جيدا بينها، وقد أمكن تصنيف هذه الأسماء اعتمادا على الغاية من التلفظ إلى حقول دلالية متنوعة [40].

*-ويرى سقراط في محاوراته على لسان قراطوليس كل اسم بمكوناته الحرفية مطابق لمدلوله تماما بالطبع ويوافقه على ذلك أرسطو.

*-بينما يرى أفلاطون بأن دلالة الأسماء تتم بالتواضع والاصطلاح

ولأول مرة يخص مفكر يوناني الأصوات و الحروف المعبرة عنها باهتمام خاص صراحة حيث يرى: " أن الأصوات التي تكتب نجدها قد **تدل على شيء** مثل أصوات البهائم * إلا أنه ليس شيء منها اسم " [41] . كما أنه في تقسيمه الكلام إلى اسم وفعل نجده " قد أضاف إلى هذا التقسيم ما يسمى بالرابطة التي تشمل الكلمات التي تخرج عن نطاق الأسماء و الأفعال « [42]، وهو ما يسمى في اللغة الفرنسية المتفرعة عن الأصل اليوناني اللاتيني Les articles et les conjonctions وهو ما تسميه العرب كذلك بالخالفة. ولعله لا يقصد بذلك إلا ما سماه العرب بعد ذلك بحروف المعاني التي لها معنى في غيرها لا في ذاتها من خلال تعلقها بسياق النظم .

ومع مجيء المدرسة الرواقية أهم مدرسة فلسفية ولغوية بعد أرسطو، والتي تزعمها زينون سنة 308 قبل الميلاد [43] اتضحت علاقة الحرف بمعناه في صورهم بشكل جيد حيث ميز الرواقيون بين" ثلاث مظاهر لكل حرف مكتوب:

أ- أثناء النطق و الممثل للمعنى المنطوق قيمته الصوتية مثل: **[a]**

ب- كما أن له شكله المكتوب و الاسم الذي يدعى به [44] **Alpha** (**a**) و الممثل للمعنى المنطوق **[a]** . وفي ظل هذا التصارع الأثيني بين مذهبي التناسب Analogie والشذوذ Anomalie اللغويين حاولوا بحث معاني الألفاظ والحروف المكونة لها.

ومن أجل الوصول إلى أنماط التمثيل أو القياس التي يتم بها حمل البعض على البعض وبالتالي البحث عن القانون الذي يحكم التناسب قاموا بتحليل بنية اللفظ للوصول إلى الاستدلال بجزيء على جزيء لشبه قائم بينهما أي مقطع لغوي (مورفيم) مع أخر يماثله.

وهنا حاولوا ضبط معنى الحرف الصوتي انطلاقا من مفاهيم أرسطو في التناسب التي خلط فيها بين الرياضيات و الفلسفة [45]

- تصور علاقة الصوت (الحرف) بمعناه عند الرومان اللاتينيين:

انطلاقا من علم أصول الكلمات " étymologie " الذي بلور مبادئه آنذاك " Varron" فارون بين (116 - 27 ق.م) تم بحث قضايا التوليد و الاشتقاق انطلاقا من التحليل النحوي وذلك عن طريق إجراء تغيرات متتالية في حروف الكلمات و معانيها [46]، وهو ما يعرف في اللسانيات المعاصرة باستبدال أحد الفونيمات من المورفيم (المقطع) فيتغير المعنى * ، كما كان لدوناطوس بعده دوره في ضبط القواعد اللغوية التي اعتمدت عليها اللغات الأوربية بعد ذلك ومنها الأدوات و الحروف وجاء بعد ذلك باريسيا ن (512-560م) الذي استوعب جهود سابقيه وعالج معاني الحروف من خلال حديثه عن أقسام الكلام مقيما علاقة بين المعاني التي تحد ث لها ا انطلاقا من التغيرات التي تعتريها حسب الصيغة الزمنية و الجنس والعدد " ولقد قيل منذ القدم : إن الإغريق يؤمنون بالفلسفة المثالية ، وان الرومان يؤمنون بالواقعية وبالمنفعة المادية "[47] ولقد انعكس ذلك على تصور كل منهما لعلاقة الحرف (الصوت) بمعناه، بينما نجد اليونانيون الذين كانوا مولعين بصور الجمال الفني في النحت وشعر الملاحم ركزوا اهتمامهم على الخصائص الصوتية للحروف ومنها حرف النون كما سنرى أحوالها أي الحروف من إيماءات ومعان عبر نبرها وإيقاعها في فهم الشعر وتذوقه كما رأينا ذلك مع أرسطو.

نجد بعكس ذلك الرومان بعقليتهم النفعية البرجماتية ركزوا على الجانب النحوي الوظيفي للحروف وكيف تخدم بمعانيها تراكيب الجمل التبليغية الأدائية للكلام، فقد اهتموا بالأدوات وحروف المعاني لا بحروف المباني.

الهوامش

1- مجلة اللسانيات، أقدم تحليل علمي للسان البشري ،د/عبد الرحمان حاج صالح ،مج:01 ،ع:2، الجزائر،سنة 1972 ص: 25

2- مقدمة في تاريخ الكتب والمكتبات، د/ماهر حمادة، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى 1994 ص:5

[3]- مولد اللغة، للعلامة أحمد رضا، دار الرائد العربي، طبعة 1983، ص:27،26 بتصرف

-[4] مجلة اللسانيات ، مرجع سابق ، ع:2 ،سنة 1972 ،ص:26.

-[5] المتوسط الكافي في علمي العروض و القوافي،موسى الأحمدي نويوات ،ص:17 ، دار البصائر ، ط1، الجزائر ، 2009. مقدمة نجل المؤلف.

أي جزئ من رسم الصورة كرأس إنسان للتعبير عن الإنسان ككل *

[6]-اللغة الشاعرة، لأستاذ عباس محمود العقاد، بتصرف طفيف، نهضة مصر للطباعة، مصر، يونيو، 1995 ص: 34

[7]- نظريات في اللغة، د/ أنيس فريحة ، طبعة دار الكتاب اللبناني، بيروت ،1973، ص: 15

[8]-فقه اللغة وخصائص العربية، محمد المبارك، دارا لفكر للطباعة والنشر و التوزيع. بيروت -لبنان ، ط:2005،02 ص: 15

9-كلام العرب : من قضايا اللغة العربية، د/ حسن ظاظا، دار النهضة العربية ، بيروت لبنان ، ط: **1976** ، ص: **41**

10- فقه اللغة وخصائص العربية، محمد المبارك، دارا لفكر للطباعة والنشر و التوزيع. بيروت –لبنان ، ط:**2005،02** ص: **15**

11-صرف، خصائص الحروف العربية ومعانيها، د/حسن عباس، منشورات اتحاد العرب، دمشق، سوري طبعة**1998** ص:**28**.....**30**

12-مولد اللغة، أحمد رضا، دار الرائد العربي، بيروت ، لبنان،طبعة: **1983** ، ص: **26**

13- مجلة اللسانيات: مصدر سابق، ص:**27-28**.

14- أسرار الحروف، أحمد زرقة، دار الحصاد، دمشق /سوريا، ط:**1**، **1993**، ص:**15**

*- المسمار : خط صغير ذو حد ورأس

15 بتصرف ،مدخل الى اللسان البشري، د/عبد الرحمان حاج صالح (مجلة اللسانيات)، ،مج**1** ، ع**2**، سنة:**1972** الجزائر،ص: **27**

16اللسانيات (النشأة والتطور) ، أحمد مومن ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الطبعة الثالثة ، سنة :**2007**،ص:**03-04**

17 اللسانيات (النشأة والتطور) ، أحمد مومن ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الطبعة الثالثة ، سنة :**2007**،ص:**12-13**

18- المرجع نفسه ، ص:**03**

19- مجلة الليسانيات، مج**1** ، ع**2**، **1972**م، د/عبد الرحمن حاج صالح،ص:**39-40**.

20- مجلة الليسانيات، مرجع سابق،ص:**41**.

21- بتصرف: مولد اللغة، أحمد رضا، دار الرائد العربي، بيروت، لبنان، طبعة **1983**، ص: **66**

22- مباحث في علم اللغة ومناهج البحث اللغوي ، نور الهدى لوشن ،طبعة المكتب الجامعي الحديث ، سنة :**2006**،

23- مباحث في علم اللغة ومناهج البحث اللغوي ، نور الهدى لوشن ،طبعة المكتب الجامعي الحديث ، سنة :**2006**، الإسكندرية، ص:**65**

24- اللسانيات (النشأة والتطور) ، أحمد مومن ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الطبعة الثالثة ، سنة :**2007** ، ص:**27**

25- بتصرف ،مدخل إلى اللسان البشري، د/عبد الرحمان حاج صالح، (مجلة اللسانيات)، ،مج**1** ، ع**2**، سنة: **1972**الجزائر،ص: **27**

26- مدخل إلى تاريخ اللسان البشري، د/عبد الرحمان حاج صالح ،(مجلة اللسانيات)، ،مج**1** ، ع**2**، سنة:**1972** الجزائر،ص: **29/27**

27- اللسانيات (النشأة والتطور) ، أحمد مومن ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الطبعة الثالثة ، سنة :**2007** ، ص:**08**

28- مدخل إلى تاريخ اللسان البشري ، المرجع السابق ،ص:**27**

29- اللسانيات (النشأة و التطور) ، المرجع السابق ،ص:**09/08**

30- مدخل الى علم اللسان البشري، عبد الرحمان لحاج صالح ،الجزائر، (مجلة اللسانيات)، ،مج**1** ، ع**2**، سنة:**1972**، ص: **27-28-29**

31- اللسانيات (النشأة والتطور)، أحمد مومن ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الطبعة الثالثة ، سنة :**2007** ، ص:**08**

32- مدخل الى علم اللسان البشري، مجلة اللسانيات ،د/عبد الرحمان حاج صالح ،المجلد الأول ،العدد الثاني ،سنة **1972** ، الجزائر, ص **27-29**

33- اللسانيات (النشأة والتطور)، أحمد مومن ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الطبعة الثالثة ، سنة :**2007** ، ص:**24-25**

34- مدخل الى علم اللسان البشري ،المرجع السابق، ص: **56-57**

35- أنظر البيت في شرح الجزرية لابن يالوشة، طبعة الزيتونة للاعلام ، قسنطينة ، الجزائر ، ط**1**، **1990**.

36- مجلة الفيصل، أسماء الأصوات(خصائصها اللغوية و أشكال توظيفها)، خليفة ألخياري، العدد**289**، أكتوبر **2000**، ص: **24**

37- مجلة الفيصل، أسماء الأصوات(خصائصها اللغوية و أشكال توظيفها)، خليفة ألخياري، العدد**289**، أكتوبر **2000**، ص: **24**

38- فقه اللغة وخصائص العربية، محمد المبارك، دارا لفكر للطباعة والنشر و التوزيع. بيروت –لبنان ، ط:**2005،02** ص:**250**

39- المرجع السابق، مجلة الفيصل، أسماء الأصوات(خصائصها اللغوية و أشكال توظيفها)، خليفة ألخياري، ص: **24**

40-المرجع السابق، ص: **24** بتصرف

41- مدخل الى علم اللسان البشري، مجلة اللسانيات ،د/عبد الرحمان حاج صالح ،المجلد الأول ،العدد الثاني ،سنة **1972** –الجزائر, ص: **45**

42- اللسانيات (النشأة والتطور)، أحمد مومن ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الطبعة الثالثة ، سنة :2007 ، ص: 19

43- اللسانيات (النشأة والتطور)، أحمد مومن ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الطبعة الثالثة ، سنة :2007 ، ص: 20

44- المرجع السابق، ص: 29

45- مدخل الى علم اللسان البشري، مجلة اللسانيات ،د/عبد الرحمان حاج صالح ،المجلد الأول ،العدد الثاني ،سنة 1972–الجزائر, ص: 46

*- مثلما سنشير الى ذلك في جهود ابن جني عند حديثه عن تغير المعنى في المقابلة بين(سعد و صعد) عند استبدال السين بالصاد، وعلاقة ذلك بصفات الوهن والقوة في الحرفين كالهمس في السين والإطباق في الصاد

46- اللسانيات (النشأة والتطور)، أحمد مومن ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الطبعة الثالثة ، سنة : 2007 ، ص: 26

47-)- بتصرف: المرجع السابق، ص: 26 /27